ديفيد هيوم(1711_ 1776)

أ_ حياته:

ولد ديفيد هيوم سنة 1711 في مدينة إدنبرة بإسكتلندا في أسرة متوسطة وكان والده محاميا توفي والده وهو صغير فتولى عمه جورج تربيته وكان ذا نزعة دينية متشددة أثرت في تكوينه المبكر التحق هيوم وهو في الحادية عشرة بمدرسة إدنبرة التي أصبحت لاحقا جامعة مرموقة حيث درس ما كان يعرف آنذاك بالفلسفة الطبيعية أي الفيزياء واطلع على نظرية إسحاق نيوتن وتلقى تعليما متقدما في الآداب الكلاسيكية اللاتينية ما أتاح له التعرف على الفلسفات اليونانية الأبيقورية والرواقية التي ساهمت في تشكيل فكره الفلسفي المبكر.

أثناء دراسته اطلع هيوم على أعمال عدد من فلاسفة العصر الحديث مثل فرانسيس بيكون ونيكولا مالبرانش وبيير بايل مما ساعده على بلورة توجهه التجريبي النقدي حاول العمل لفترة قصيرة في التجارة بمدينة بريستول غير أن الحياة التجارية لم تستهويه فاختار السفر والتنقل في أوروبا خاصة فرنسا واستقر فترة في مدينة لا فيش حيث ألف كتابه الأساسي «بحث في الطبيعة البشرية» وعند عودته إلى لندن سنة 1737 نشر الكتاب لكنه لم يلق النجاح المتوقع فقام بإعادة صياغة أفكاره في مؤلفات أصغر مثل «بحث في الفهم الإنساني» سنة 1746 و«بحث في مبادئ الأخلاق» سنة 1751

بعد عودته إلى بريطانيا تعرف هيوم على فرانسيس هتشسون أستاذ الفلسفة بجامعة غلاسكو ومن خلاله على آدم سميث وفي سنة 1746 عمل سكرتيرا لدى الجنرال سانت كلير ورافقه في مهام دبلوماسية إلى فيينا وتورينو وكان قد تقدم سابقا للحصول على منصب أستاذ للفلسفة بجامعة غلاسكو لكن طلبه رفض بسبب معارضة المتدينين وتكرر الرفض عند تقدمه مرة ثانية سنة 1751

في سنة 1752 تولى هيوم وظيفة محافظ مكتبة كلية المحامين في إدنبرة وهو ما أتاح له الاطلاع على المصادر والوثائق التاريخية فاستثمرها في تأليف كتابه ""تاريخ إنجلترا" الذي أنجزه بين 1754 و1761 واتبعه منهجا غير تقليدي بدأ من الفترات الحديثة متقدما تدريجيا إلى العصور القديمة وبين سنتي 1763 و1766 شغل سكرتيرا للسفارة الإنجليزية في باريس حيث تعرف على أبرز فلاسفة التنوير الفرنسي مثل جان لورون دالمبرت ودينيس ديدرو وعند عودته إلى لندن سنة 1766 ساعد جان جاك روسو على الإقامة في إنجلترا بعد مغادرته جنيف غير أن العلاقة بينهما توترت بسبب اختلاف الآراء والطباع مما أدى إلى انفصال روسو عن هيوم. وفي سنة 1767 أصبح هيوم وكيلا للوزارة ثم عاد سنة 1769 إلى إدنبرة حيث قضى ما تبقى من حياته محافظا على علاقته الفكرية بصديقه آدم سميث الذي تأثر بأفكاره

في كتابة «ثروة الأمم» وتوفي هيوم سنة 1776 في مسقط رأسه بعد أن ترك أثرا عميقا في الفلسفة التجريبية الحديثة.

ب_ مؤلفاته:

_ رسالة في الطبيعة البشرية :**(A Treatise of Human Nature 1739–1740)** أضخم أعماله، مقسمة إلى ثلاثة كتب هي "في الفهم"، "في الانفعالات"، و"في الأخلاق"، وتتناول فلسفته التجريبية ونظرية المعرفة والانفعالات والأخلاق .

_ مقالات أخلاقية وسياسية :**(Essays, Moral, Political, and Literary 1741)** مجموعة مقالات متنوعة تتناول مواضيع أخلاقية وسياسية وأدبية .

_ مبحث في الفاهمة البشرية **(An Enquiry Concerning Human Understanding :(1748**إعادة صياغة للجزء الأول من رسالته بأسلوب أوضح، يركز على نظرية المعرفة ومبدأ السببية .

_ مبحث في الأخلاق :**(An Enquiry Concerning the Principles of Morals 1751)** يعرض فيه هيوم نظرته للأخلاق القائمة على العاطفة والمنفعة .

_ تاريخ إنجلترا :**(The History of England 1754–1762)** سلسلة تاريخية متعددة المجلدات تبدأ بالفترة الحديثة وتتتبع تاريخ إنجلترا بالتسلسل الزمني .

_ التاريخ الطبيعي للدين :**(Natural History of Religion 1757)** دراسة تحليلية لنشأة وتطور المعتقدات الدينية عبر المجتمعات .

_ محاورات في الدين الطبيعي :**(Dialogues Concerning Natural Religion 1779)** نُشرت بعد وفاته، وتناقش قضايا الدين والوجود والفلسفة الدينية .

1_ نظرية المعرفة:

إنّ المعرفة تتألف من الانطباعات الحسّية والأفكار الانطباع الحسّي يمثل الشعور، كشعور الألم والحرارة، وكل ما تتلقاه حواسنا الخمس. أما الأفكار فهي ما تتركه هذه الانطباعات في الذاكرة، وما ينتجهُ الخيال عنها. مثلًا، عندما نتذكر شعور الألم بعد فترة من اختباره، وعندما نتخيّل شعور ألمٍ لم نختبره سابقا لكن المعرفة تتضمن أيضًا ما يسميه هيوم العلاقات بين الأفكار وهي الروابط ما بين المفاهيم التي نقوم ببنائها

في تحليلاتنا في الرياضيات وعلم المنطق، على سبيل المثال وتتميّز العلاقات بين الأفكار بأنها طريقة تفكير برهانية مستقلة عن أحداث الواقع، بالإضافة إلى أن صحّتها لا تعتمد على علاقتها بالواقع مثلا، إنّ صحّة خاصّية المثلّث التي تقول بأن مجموع زواياه يساوي 180 درجة لا تعتمد على وجود المثلّث فعليًّا في الواقع، بل فقط على العملية الفكرية التي تُنتِج هذه الخاصّية.

تختلف الانطباعات الحسّية عن الأفكار من حيث القوة والحيوية، فالانطباعات الحسّية تكون بطبيعة الحال أقوى وأكثر حيوية من الأفكار يمكن فهم هذا التمييز من خلال الفرق بين الإحساس والتفكير، فالتفكير بالوجع يكون أضعف وأقل حيوية من الوجع حين يحدث على الرغم من أن في بعض الحالات، في الأحلام أو الهلوسات على سبيل المثال، تتمتّع الأفكار بقوة وحيوية تفوق قوة وحيوية الانطباعات الحسّية، إنما هذا الاستثناء لا يلغي القاعدة في التمييز بينهما بشكلٍ عام على أساس القوة والحيوية. بالإضافة إلى ذلك، يؤكد هيوم أن الأفكار والانطباعات الحسّية تنقسم ما بين البسيطة والمعقدة. الانطباعات الحسّية المعقدة، مثل انطباع الزهرة حين نختبرها حسّيًا، يمكن تجزئتها إلى انطباعات حسّية بسيطة، مثل لون الزهرة ورائحتها. والأفكار البسيطة مثل فكرة رائحة الزهرة أو لونها حين نستعيدها في الذاكرة أو نتخيّلها، تتجمّع لتكوين الفكرة المعقدة للزهرة. ويضيف هيوم بأنه بينما تتطابق الأفكار البسيطة مع الانطباعات الحسّية البسيطة، هناك الكثير من الأفكار المعقدة التي لا تتطابق مع أيّ انطباعات حسّية معقدة. مثلًا، إذا أردنا أن نتخيّل مدينة باريس، لا يمكن أن تكون فكرتنا المعقدة هذه مطابقة لواقع المدينة، والأهم في هذا السياق، الجزء الأول من موقف هيوم التجريبي، وهو أن الانطباعات الحسّية البسيطة هي مصدر الأفكار البسيطة، وليس العكس.

2_ السببية والاعتقاد:

في نقده لمفهوم السببية، من جهة، يوضح هيوم أن الاقتران والتتابع بين الظواهر التي نلتقطها عبر الانطباعات الحسّية لا يخوّلنا الاستنتاج بأن هناك علاقة ضرورية بينها، كالعلاقة السببية فظاهرة النار تحت وعاء الماء التي تليها ظاهرة الماء المغلية تعني فقط أن هناك اقتران وتتابع بين الظاهرتين، ما لا يكفي لاعتبار النار السبب الذي ينتج بالضرورة غليان الماء من جهة أخرى، يعتقد هيوم أن حكم السببية ليس مصدره العقل، بل العادة، وهذا هو الجزء الثاني من موقفه التجريبي إنّ تكرار الاقتران والتتابع ذاته الذي نتلقاه عبر الانطباعات الحسّية يجعلنا نعتقد بأن العلاقة ذاتها سوف تتكرر في المستقبل لذلك، عندما نتلقّى الانطباع الحسي الخاص بالنار، نتوقع أن يليه الانطباع الحسي الخاص بغليان الماء التجربة الحسية هي مبدأ يرشدني في العديد من عمليات اقتران الأشياء في الماضي، أما العادة فهي مبدأ آخر يجعلني أتوقع الشيء ذاته في المستقبل.

الاعتقاد (belief) ينتج عن خليط من الانطباعات الحسّية والأفكار الاعتقاد هو فكرة حيوية ناتجة عن العلاقة مع انطباع حسي يقرّ هيوم بصعوبة شرح كيف أن الاعتقاد هو بمثابة شعور للعقل، لكنه يجادل بأن الاعتقاد ينتج عن العادة، فعندما يعتاد العقل على استقبال الانطباعات الحسّية للطقس البارد والثلج بشكلٍ متزامن، يتوقع الثلج حين يتلقى انطباع الطقس البارد بسبب الاعتقاد باقتران الظاهرتين إنّ حيوية وقوة الأفكار التي تشكل الاعتقاد تصدر عن العادة في تلقي الانطباعات الحسّية المتشابهة مرارا وتكرارا عندما تتحوّل الأفكار إلى اعتقادات، تصبح الوقائع حاضرة لنا بشكلٍ أقوى، ما يعني أن الأفكار تكسب وزنًا إضافيًا في الفكر، بحسب تعبير هيوم، ما يجعل لها تأثيرا أكبر على الانفعالات والتوقعات.

3_الشك والفكر:

يؤكد هيوم أن لا شك في صحّة القواعد في العلوم البرهانية كالرياضيات وعلم المنطق، لكن المشكلة تكمن في تطبيقها من خلال الأحكام التي تصدر عن العقل ينطلق هيوم في جداله من أن قدراتنا الفكرية ضعيفة وغير معصومة عن الخطأ، فهي تصدر أحكامًا لا يمكن الثقة بصحتها أي حكمٍ يصدر عن عالم في الرياضيات يجب مراجعته وفحصه مرة أخرى، مما يتطلب حكما ثانيا يصدر عن القدرات الفكرية الضعيفة. وإذا كان الحكم الأول يتمتع باحتمال كبير لصحّته، فالحكم الثاني يقلّص هذا الاحتمال بسبب ضعف القدرات الفكرية وهذا ما يدعو إلى حكمٍ ثالث لفحص الحكم الثاني، وهكذا إلى ما لا نهاية حتى يصبح احتمال صحّة الأحكام قريب إلى الصفر. ويضيف هيوم أن علماء الرياضيات يثقون بأحكامهم لأنهم يحظون بقبول هذه الأحكام والترحيب بها من قبل العلماء والمجتمع المثقف، لكن هذا لا يعني أن أحكامهم صحيحة.

بالمقابل، يسلم هيوم بصحّة القضايا البسيطة في الرياضيات، كالحساب مثلا، ويصرح بأن الحقائق التي برهنها إقليدس تحافظ على صحتها يمكن أن يبدو هذا التصريح متعارضًا مع نقد القدرات الفكرية التي يمكن أن تجعلنا نشكّ في صحّة الحقائق الرياضية جميعها لكن أعتقد أن هذا التصريح يعني أن هيوم، في نقده للقدرات الفكرية، لا يقصد التشكيك في جميع الحقائق الرياضية، ولكن في الأحكام التي تصدر عن قدراتنا الفكرية بشكلٍ حصري. لذلك، متابعا تشكيكه بالقدرات الفكرية، يقترح هيوم أن يعتمد الاعتقاد بحقيقةٍ ما على العمل الحسّي أكثر من الفكري فالحقائق البسيطة في الرياضيات يمكن أن نرسمها على الورقة ونتأكد من صحتها، كرسم المثلث مع خط مواز لإحدى جهاته للتأكد من أن مجموع الزوايا يساوي 180 درجة هذا النوع من البراهين لا يتضمن التحليل النظري الذي يعتمد على القدرات الفكرية البحتة، بل يتضمن بشكل أساسي عمل الإدراك الحسي يمكن رؤية هذا التمييز أيضا في احتساب الجمع بين الأرقام، فالاعتماد على القدرات الفكرية يمكن أن يجعلنا نخطئ في الحساب، أما إذا رسمنا الأرقام ممثلة بالنقاط وقمنا بعدها، فاحتمال الخطأ قليل لأننا نعتمد على ما نراه أكثر مما على ما نفكر به.

الشك والخبرة الحسية

يجادل هيوم بأن معرفة الأشياء عبر الحواس لا تخولنا القول باستمرارية وجودها عندما لا تكون حاضرة للحواس، أو التأكيد بأن الأشياء موجودة بمعزل عن إدراكنا لها بالنسبة لهيوم، إنّ الاعتقاد بأن الأشياء تستمر في الوجود في وقت غيابها عن الحواس هو مصدر الاعتقاد بأن الأشياء موجودة بمعزل عن إدراكنا لها، أي وجود العالم الخارجي المستقل عن الإنسان يبحث هيوم عن مصدر الاعتقاد باستمرارية وجود الأشياء، ويقترح أن هذا المصدر هو الخيال، وليس الحواس ولا العقل أي أن الحواس لا تخولنا للاعتقاد باستمرارية وجود الأشياء، وأن هذا الاعتقاد غير نابع من العلاقات بين الأفكار، بل من انتظام وترابط الظواهر سريري وطاولتي وكتبي وأوراقي يظهرون بالطريقة ذاتها، ولا يتغير انتظامهم بسبب أي انقطاعٍ في رؤيتي أو إدراكي لهم تكرار الانتظام والترابط في الانطباعات الحسّية يجعلنا نفترض وجود الأشياء المستقل عن إدراكنا لها.

بعد أن صرح هيوم بأن الوجود الخارجي للأشياء بمعزل عن الإدراك هو من صنع الخيال، قال إنه ما يزال يعتقد أن من الأفضل الثقة بالحواس الشك في وجود العالم الخارجي لا مفرّ منه، فهو يلاحقنا دائمًا ويصبح أقوى كلما فكّرنا أكثر وحاولنا إثباته أو نفيه. كما أنه لا يمكن لأي منظومة نظرية أن تدافع عن صحّة معرفتنا القائمة على الاختبار الحسّي، بحسب هيوم لكن طبيعتنا البشرية تجعلنا نعود بعد هذا الشّك لنعتقد بوجود عالمين، العالم الخارجي المكوَّن من الأشياء المستقلة عن معرفتنا بها، والعالم الداخلي الذي يتألف بشكل أساسي من الانطباعات الحسّية للأشياء.

4_ الشّك والتردد الفكري:

يكون المشكك الحقيقي خجولا في شكوكه الفلسفية، كما في قناعاته الفلسفية في هذه الكلمات، يتابع هيوم ما قاله سابقا بعد نقده للقدرات الفكرية، حين رفض الشكوكية المطلقة في الجملة التالية:

إذا كان من الضروري أن أسأل ما إذا كنت أوافق بصدقٍ على هذه الحجة التي يبدو أنني أتحمل الآلام لترسيخها، وما إذا كنت حقا أحد هؤلاء المشككين الذين يعتقدون أن كل شيء غير مؤكد، وأن حكمنا لا يمتلك أي مقاييس للصحّة والبطلان؛ يجب أن أجيب أن هذا السؤال لا لزوم له تماما، وأنني لم أكن أنا ولا أي شخص آخر أبدًا ودائمًا مناصرًا لهذا الرأي يدعونا هيوم إلى المحافظة على الشّك الخجول غير المطلق، فهو لا ينفي إمكانية صحّة المعرفة في الرياضيات ولا يقبل بالشّك في كل ما تقدمه لنا حواسنا وإذا كان هناك من تناقض بين الشّك في العالم الخارجي المستقل عن الحواس والاعتقاد بوجوده، فهذا يعود إلى طبيعتنا البشرية التي تدعونا إلى الشّك، كما تدعونا إلى الاعتقاد وإنتاج الأحكام مثلما نتنفّس ونشعر لذلك،

بالرغم من أن شكوك هيوم تبدو في بعض الأحيان مطلقة، إلّا أنها في الواقع خجولة، بحسب تعبيره، مما يعني أنه غير واثقٍ تمامًا من صحّة شكوكه. كما أنه يضع احتمال أن تكون أحكامنا صحيحة، أي أن بناء المعرفة الصحيحة محتملا، وهنا يكمن التناغم مع موقفه التجريبي القائم على إمكانية بناء المعرفة.

5_ مسألة التناغم:

أولا بالنسبة إن الانطباعات الحسّية البسيطة هي مصدر الأفكار البسيطة. ثانيا فهو أن العادة هي مصدر حكم السببية، كما أنها مصدر الاعتقاد بوجود العالم الخارجي من خلال في تكرار انتظام وتقارن الأشياء أعتبر أن مفهوم العادة عند هيوم هو جزء من موقفه التجريبي لأن العادة قائمة على تكرار الانطباعات الحسّية، وليس على تكرار طريقة التفكير النظرية والعلاقات بين الأفكار إنّ هذا الموقف التجريبي لا يحصر المعرفة في إطار الحواس والانطباعات الحسّية، إذ إن المعرفة تتضمن العلاقات بين الأفكار، كما أنها تشمل الاعتقادات القائمة على العادة والمؤلفة من مزيج بين الانطباعات الحسّية والأفكار فالأفكار المعقدة، على سبيل المثال، يمكن ألّا يكون مصدرها الانطباعات الحسّية، بل من صنع الخيال أو العقل. وفي هذا السياق يقول هيوم: " ألاحظ أن العديد من أفكارنا المعقدة لم يكن لها أبدا انطباعات تتوافق معها، وأن العديد من انطباعاتنا المعقدة لا يتم نسخها تمامًا في الأفكار"

من جهة أخرى، الجزء الأول من موقفه الشكوكي هو أنه لا يمكننا الاعتماد على القدرات الفكرية أكثر من الحواس لبناء المعرفة، كما أنه لا يمكننا أن نثق كليًا بالحواس أما الجزء الثاني من الشكوكية فهو المحافظة على الشّك الخجول في عملية بناء المعرفة. يمكن وصف هذا الموقف الشكوكي بالمعتدل، بما أنه لا يشكك بشكلٍ مطلق في إمكانية بناء المعرفة على أساس الفكر ولا على أساس الحواس، بل يكتفي بتفضيل الحواس على الفكر في عملية البناء أي أن هيوم يثق بالحواس أكثر من القدرات الفكرية، ولكن هذه الثقة ليست مطلقة، بل تترافق مع الشّك الخجول في الحواس، كما في القدرات الفكرية.

إنّ التعارض بين الفلسفة التجريبية والفلسفة الشكوكية ينبع من التعارض الكامن في طبيعتنا البشرية بين الشّك والثقة فالإنسان ملزمٌ بإصدار الأحكام والمعتقدات والشّك في صحّتها في الوقت ذاته. وإذا كان الاختبار الحسّي مصدرًا موثوقًا لبناء المعرفة، فلا بدّ لنا أن نشكّ في صحّة هذه المعرفة. لذلك، إنّ شكوكية هيوم المعتدلة هي بمثابة التسوية لهذا التعارض، بما أنها ليست مطلقة على حد تعبيره إن الموقف القائل بأن الثقة في الحواس ينبغي أن تكون أكثر من ثقتنا بقدراتنا الفكرية لا يُلغي الشّك فيما نبنيه انطلاقًا من الانطباعات الحسّية، ولا يدمّر كل ما ينتجه الفكر لا يتعارض هذا الشّك مع موقف هيوم التجريبي؛ وذلك لأن شكّ هيوم ما يزال يسمح ببناء المعرفة الصحيحة.

الخاتمة

من جهة، يؤكد هيوم أن من المستحيل بناء منظومة نظرية تدافع عن الموقف التجريبي وتنفي الشكوكية بشكلٍ ناجح ومن جهة أخرى، يجادل بأن الفكر الدوغمائي الرافض للشكوكية يتمتع بقدرة على الإقناع متساوية مع قدرة الفكر الشكوكي لذلك، هيوم لم يقدّم منظومة دوغمائية تدافع عن موقف واحد بمعزل عن الآخر، بل قدّم فكرا نقديا لكيفية بناء المعرفة، معترفا بضعف الطبيعة البشرية في عملية البناء هذه.